الأزهر كما يصوره الجبرتي

د. عيسى عبده

الجامع الأزهر، قلعة حصينة من قلاع الإسلام، على كل من الحقيقة والمجاز. وفي تاريخه الطويل صفحات ناصعة البياض في سجل الصمود، الصمود في وجه العدوان المادي بمحاولة تقويضه وهدمه من حيث هو بناء شامخ وأرض طيبة، والصمود في وجه الحرب المعلنة أو الخفية على ما يرمز له الأزهر من الثبات على الدين الحق، وإن حاقت برجال الدين محن وآلام، يريد الله بها أن يميز بين الخبيث والطيب ليكون للصابرين المجاهدين أجرهم ضعفين: ضعف على الطاعة والعمل على رفع كلمة الله، وضعف على مغالبة المكابرين من حزب الشيطان، وما خلا منهم زمان ولا مكان، سنة الله في أرضه ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

وقد عرفت الأمة الإسلامية للأزهر الشريف هذه المكانة، وكسبت مصر باحتوائها له مكانة خاصة في العالم الإسلامي، وحرصت الأمة الإسلامية على أن يظل الأزهر حصن الدفاع عن العقيدة ومنارة الهداية، لا تسبقه بقعة في الأرض إلا ثلاث تشد إليها الرحال.

وكما عرفت الأمة الإسلامية لهذا الجامع مكانته، كذلك كانت الحال عند خصوم الإسلام، فما هادنوه. ومن السذاجة أن يطمع المرء في المهادنة عن قريب أو عن بعيد، فالحاقدون على الإسلام لا يزيدون على مر الأيام

إلا غلوًا في إثارة الحرب عليه معلنة أو خفية، ظاهرة أو مطوية في ثنايا السلوك، حتى السلوك العلمي الصادر عن علماء مشهورين (في عرف الناس وحسب؛ إذ لا قيمة لأي علم لا يهدي صاحبه إلى التوحيد). وفي هذه العجالة سأضرب مثلين، وفيهما إشارة كافية.

فى دوائر المعارف:

انظر إلى دائرة المعارف البريطانية، ولها من الصيت ما لا يغيب عن المثقفين، ثم ابحث عن الأزهر في كل المظان. ابحث في كل مادة لغوية وثيقة الصلة بقلعة الإسلام: تحت كلمة معبد أو مسجد أو جامع أو بيت من بيوت الله، أو تحت الحروف الدالة على الأزهر بالذات، وستجد أن هذا المرجع الذي يطمئن إليه بعض الناس قد خلا من النص ومن الإشارة جميعًا!

ومن غريب الأمر أن تجد هيئة التحرير في هذه الموسوعة لم تجهل مكانة (الأزهري) الزعيم السوداني الراحل، ثم تقول: الأزهري إسماعيل، وتذكر عن مولده ونشاطه ومكانته ما يطيب لها أن تقوله، وبهذا تنتهي مادة الأزهر والأزهريين في عرف هيئة التحرير بدائرة المعارف البريطانية!

وقد يقول قائل إن دائرة المعارف البريطانية لا تذهب في ذكر التفصيلات إلى حد يسمح لها بوزن (الجامع الأزهر) في التاريخ الإسلامي، وفي العالم الإسلامي على تتابع أدوار القوى والتراجع في صفوف المسلمين، قد يقول قائل حسن الظن بمثل ما تقدم. فنقول: انظر إلى دائرة أخرى مختصة بالدين والملل والنحل، وابحث عن الأزهر، بل ابحث عن الإسلام، وستجد ذكر الإسلام وحسب في خمس صفحات، جاء

الكاتب فيها على كل ما يظنه من الإسلام، أو من تاريخه، أو من شؤون الأمة التي اختارها الله جل شأنه لحمل الأمانة إلى يوم البعث. ثم وازن بين هذا التقتير الشديد بصرف النظر مؤقتًا عن سطحية المادة وأخطائها- وبين الوفرة والغنى في تفصيلات الأحداث، والأحكام التي تنسب إلى سيدنا موسى أو إلى سيدنا عيسى (عليهما السلام)، وإنك لتجد الكلام المستفيض عن (اليهود) وعن (اليهودية) وعن (المسيحية)، ثم إنك واجده أيضًا عن إسرائيل والصهيونية بإسهاب، بحيث تبلغ صفحات هذه البحوث مجتمعة بضع مئات، تقابلها عن الإسلام خمس صفحات خاويات جاهلات آثمات!

قالوا في لغة السياسة: إن السكوت وسيلة من وسائل الدفاع، وهو أيضًا وسيلة هدم؛ ولهذا حفل التاريخ بتفصيلات جمة عن حملات السكوت من النوعين. وما كان إغفال الأزهر من المراجع التي يقال عنها علمية إلا مثلًا على السلوك الحاقد على الإسلام. "يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ".

مع الجبرتي:

هذا المؤرخ العظيم (الجبرتي) عرض للأزهر الشريف في عهده، من زاوية الأحداث التي جرت وسجلها بقلمه الرصين. وكان الجبرتي على طريقته، موضوعيًا وحسب، بمعنى أنه يعرض الأحداث تباعًا دون أن يعقب من عنده بالرأي أو التقدير.

وهذا أسلوب خاص من أساليب التاريخ المعروف باليوميات، وهو أسلوب صادق أمين. وللدارس أن يعمق النظر فيما جرى به قلم الجبرتي،

وإنه ليجد بين ثنايا السطور إشارات غير معلنة، تتكفل بها الأحداث وما بينها من ترابط وثيق ثم إن لكل حادثة دلالة. وقد آثرنا أن نورد النص كما انتهى إلينا ثم نقف في آخر المقال وقفة قصيرة، لعلنا نستشف من وراء الزمان الذي انقضى على حملة الفرنسيين إلى يومنا هذا بعض العظات والعبر، وهذا فرض على المؤمنين إلى يوم يبعثون. إذ جاء في كتاب الله جل شأنه فيض من النور عن القصص وما فيه من علم نافع، قال تعالى مخاطبًا رسوله (ﷺ) –وعلينا أن نتبع– "فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ". وقال (جل شأنه): "تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا"، وقال أيضًا: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ".

يقول الجبرتي في الجزء الثالث من الطبعة الأميرية من صفحة ٢٥ – ٤٧ تحت عنوان (إطلاق المدافع من الفرنسيين على الأزهر): "لما ظهرت غلبة الفرنساويين في القرن الثالث عشر الهجري على مصر وملكوا القلعة وغيرها، أرسل كبيرهم إلى مشايخ الأزهر مراسلة فلم يجيبوه، فعند ذلك ضربوا بالمدافع على البيوت والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وحرروا عليه المدافع والبنادق، وعلى ما جاوره من الأماكن كالغورية، والفحامين، فضج أهل تلك الجهة، ونادوا: يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.

وتتابع الرمي من القلعة وتلال البرقية حتى تزعزعت الأركان وهدمت حيطان الدور، فركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل فيكف عسكره عن الرمي، فعاتبهم في التقصير، فاعتذروا إليه، فقبل عذرهم ورفع عنهم الرمي، وقاموا من عنده ينادون بالأمان في المسالك

والطرقات واطمأنت القلوب.

ثم بعد الحادثة السابقة ثارت فتنة بين أهل الحسينية والعطوف، وبين الإفرنج وتراموا، ولم يزل الرمي بين الطائفتين حتى فرغ من الطائفة الأولى البارود، فأثخنهم الفرنج بالرمي المتتابع.

وبعد هجمة من الليل دخل الإفرنج المدينة، ومروا في الأزقة والشوارع وهدموا ما وجدوا من المتاريس وانتشروا في الطرقات وتراسلوا رجالًا وركبانًا، ثم دخلوا الجامع الأزهر راكبين على خيولهم، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وقبلته، وعاثوا بالأروقة وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا أمتعتهم، ودشتوا الكتب والمصاحف وطرحوها على الأرض وداسوها، وجردوا كل من وجدوه به وأخرجوه، وأصبحوا مصطفين بباب الجامع، وكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعًا، ونهبوا بعض الدور التي بالقرب من الجامع، وخرج سكان تلك الجهة يهرعون للنجاة بأنفسهم.

وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع، وبقي الأمر كذلك يومين قتل فيهما خلائق لا تحصى، ونهبت أموال لا تستقصى، فركب المشايخ بأجمعهم وذهبوا إلى بيت سر عسكر الفرنساوية، وطلبوا منه الأمان فوعدهم مع التسويف، وطلب منهم بيان من تسبب في إثارة الفتنة من المتعممين فغالطوه، فقال لهم على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد، فترجوا عنده في إخراج العسكر من الجامع الأزهر، فأجابهم لذلك

وأمر بخروجهم، وأسكن منهم نحو السبعين في الخطة[٦] كالضابطين، ثم فحصوا عن المتهمين فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان، والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، والشيخ إسماعيل البراوي، وحبسوهم ببيت البكري[٧].

ثم ركب الشيخ السادات والمشايخ إلى بيت سر عسكر، وتشفعوا في المسجونين فقيل لهم لا تتعجلوا، وبعد أيام حضر جماعة من عسكر الفرنسيس إلى بيت البكري نصف الليل، وطلبوا المشايخ المحبوسين عند سر عسكر ليتحدث معهم، فذهبوا إلى بيت قائم بدرب الجماميز، وهناك عروهم من ثيابهم وطلعوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح، ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم خلف القلعة.

رفع البيارق على منارة الأزهر:

لما توجه بونابرت إلى الشام بعد استيلائه على مصر، استولى على مدينة العريش وغزة وخان يونس، ورد الخبر إلى مصر فعمل الفرنساوية شنكًا[٨]، وضربوا عدة مدافع من القلعة والأزبكية، وحضر عدد منهم راكبين الخيول وبعضهم مشاة، وعلى بعضهم عمائم بيض وعلى جماعة برانيط، ومعهم نفير ينفخون فيه، وبيدهم بيارق كانت عند المسلمين بقلعة العريش، إلى أن وصلوا إلى الأزهر واصطفوا ببابه رجالًا وركبانًا، وطلبوا الشيخ الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر، وأمروه برفع تلك البيارق على

---

(٦) الخطة: مثل (الحي).

(٧) بيت البكري بالخرنفش.

(٨) الشنك: صواريخ الأعياد والمناسبات للاحتفاء أو لإظهار الفرح.

منارات الجامع الأزهر، فنصبوا بيرقين على المنارة الكبيرة ذات الهلالين، وعلى منارة أخرى بيرقًا وضربوا عدة مدافع بهجة وسرورًا، وكان ذلك ليلة عيد الفطر، وعند الغروب ضربوا مدافع إعلامًا بالعيد.

قتل المجاورين وغلق الأزهر:

وفي افتتاح محرم سنة ١٢١٥هـ وقعت حادثة عجيبة، وهي أن سر عسكر الفرنساوية (كليبر) كان واقفًا في بستان داره بالأزبكية وصحبته أحد خواصه، فدخل شخص يوهم أن له حاجة وضربه بخنجر فشق بطنه وفر هاربًا، ففتشوا عليه حتى أخرجوه من بئر فوجدوه شاميًا، فسألوه فأخلط في كلامه فعاقبوه وحرقوا يديه بالنار، فقال لهم لا تظلموا أهل مصر، فأنا من جملة جماعة بعنا أنفسنا للموت واتفقنا على رؤسائكم، فقيل له أين كنت تأوي، فقال عند فلان وفلان برواق الشوام بالأزهر ولا يدرون حالي.

فأحضروا الشيخ الشرقاوي (شيخ الأزهر) والعريشي، وألزموهما بإحضار الذين كان يأوي إليهم وهم أربعة، ثم ركبوا إلى الأزهر وصحبتهم أغوات الإنكشارية، وقبضوا على ثلاثة ولم يجدوا الرابع، ثم صبروا المقتول وألبسوه برنيطة، ثم وضعوا معه الخنجر الذي قتل به، وحملوه على عربة إلى تل العقارب حيث القلعة التي بنوها هناك وضربوا له المدافع، وأحضروا القاتل وخوزقوه، وضربوا رقاب الثلاثة الشوام المظلومين وحرقوا جثثهم، ورفعوا رءوسهم على خوازيق بجانب المخوزق، ثم وضعوا قتيلهم في تخشيبة ووضعوا عندها عسكرًا يتناوبون ليلًا ونهارًا، ثم ولوا عوضه سر عسكر يسمى (منو) كان بتغر رشيد، وأظهر أنه أسلم ويسمى بعبد الله، وحضر

مع قائم مقام الأغا إلى الأزهر، وشقوا فيه وفي أروقته، وأرادوا نبش أماكن للتفتيش على السلاح. وأخذ المجاورون في نقل أمتعتهم وإخلاء الأروقة ونقلوا كتب الوقف، ثم إنهم كتبوا أسماء المجاورين في قائمة وأمروهم ألا يؤووا أفاقًا مطلقًا، وأخرجوا منه الأتراك بالكلية، وفي عصريتها توجه الشيخ الشرقاوي والمهدي والصاوي إلى سر عسكر (منو)، واستاذنوه في قفل الجامع وتسميره منعًا للريبة، فربما دس فيه من يبيت به ويفعل ما أراد، ولا يمكن الاحتراس من ذلك لكثرة دخانيق الجامع واتساع زواياه، فأذن لهم بذلك.

وسمروا أبوابه وكذا سمروا مدرسة مُحَمَّد بك (أبي الذهب) المقابلة له وأخرجوا منها الأتراك، واستمرت الشدة والانزعاج إلى أن أخذ الفرنساوية في الانجلاء عن الديار المصرية. وفي محرم سنة ١٢١٦ فتح الجامع الأزهر، وكذلك المدرسة، وفرح الناس فرحًا شديدًا وهنأ بعضهم بعضًا.

عبرة الدهر:

وأي عبرة بالغة في إحداث الحملة الفرنسية على مصر وموقفها من الأزهر الشريف؟ بل أية عظات وعبر تلك التي تطاول الزمان وتعلو بصوتها الجهير على كل مستحدث من الدعوات إلى الفصل بين الدين وبين مسيرة الأمة الإسلامية نحو المكانة التي أرادها الله (سبحانه) لعباده المتقين، إذ يخاطبهم بالقول الصريح: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا".

يقولون في الأمثال: "ما أشبه الليلة بالبارحة"، وإن ما فعله المعتدون بالأزهر من مئة وسبعين عامًا، هو بعينه ما فعلته إسرائيل بالمسجد الأقصى

من عامين، لا جديد.أما اقتحام المسجد بالخيول أو بالمدرعات، وأما قتل الأبرياء وقصف بيوت الله، فقد كان من فعل المشاة، بقدر ما وسعهم البغي والعدوان، ولكن أدوات العصر تفوقت بالقصف من الجو ومن الأرض على المدى البعيد، ثم زادت من وسائل الدمار ما هو معلن وما لا يزال على الكتمان، والهدف باقٍ على ما كان عليه: هو المسجد وما يتلى فيه من قرآن.

لقد فرح المسلمون حين أعيد فتح الأزهر، كما يقول الجبرتي فيما تقدم من تاريخه. ولكن هل تنبه المسلمون إلى الخطر المحدق بكل مسجد، لا بالأقصى وحده، ولا الأزهر وحده؟ وهل عرف المسلمون أن مخطط إسرائيل يسير الهوينى، ولكن في ثبات وبهدفه خبير؟ ولقد حذرنا الله كثيرًا والناس في غفلة، فإذا لم يؤمنوا بالقصص الحق "فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ"!